ليس على الضفّة الأخرى من يُصغي إلى صوت الموسيقى؟!

فاروق وادي
كاتب وناقد فلسطيني مقيم في الاردن

سؤال واحد، بسيط، كنت أخبئه لإدوارد سعيد، إذا ما التقينا يوماً ذات صُدفة. لكن الرجل الذي رحل عنّا وأحزننا رحيله، ذهب ومعه الكثير من أحلام السلام وأوهامه، فلم ينتظر لحظة لأطرح عليه السؤال: هل تسنى لعينيك أن تقعا على الملصق الذي أصدره «المعهد الوطني للموسيقى» في رام الله منذ خمس سنوات؟!

كان الملصق، اللافت ببساطته الثريّة ودلالته العميقة، يجمع بين صورتين لشخص واحد .. فتى اسمه «رمزي».

الصورة الأولى لرمزي الطفل، الذي نزع الاحتلال عنه طفولته، وكنّا قد شاهدناه في الانتفاضة الأولى آلاف المرّات دون أن يعنينا الاسم. صبيّ دون العاشرة، بسترة حمراء عتيقة، أشعث الشعر، من عينيه يشع غضب عارم رغم الذبول، لا يحفل بهندامه، فكل همومه تنحصر في أن يظلّ قابضاً بكلتا يديه على جمر الحجر.. ليرشق به جنود الاحتلال.

كانت صورة رمزي تلك، الملتقطة في العام (١٩٨٧)، تكثيفاً رمزياً دلالياً لفعل الانتفاضة. غير أن الصورة الأخرى التي وقفت إلى جانبها في الملصق، والتي التقطت لرمزي بعد ذلك بعشر سنوات (١٩٩٧)، بكل ما انطوت عليه تلك السنوات من أحلام وأوهام وإنجازات وإحباطات، جاءت لتشكّل نقيضاً للصورة الأولى: رمزي الشّاب النظيف، الأنيق، الوسيم، يقبض بكلتا يديه على آلة «الفايلون» ليعزف ألحانه، مقترحاً الموسيقى، بحركة رمزية لا تخلو من دلالة، شكلاً للعلاقة بين الشعبين، أو على الأقل .. شكلاً للمواجهة الحضاريّة بين شعبين سال بينهما نهر من الدماء وانتصبت جبال من الأحقاد.

ذلك الملصق، ظلّ يلحّ عليّ بالسؤال الذي لن أعثر على إجابته بعد اليوم: هل تسنى لإدوارد سعيد أن يتأمل «رمزي» في حالتيه.. ويستنبط ما انطوي عليه ملصقه من دلالات؟ فلعل ما يجمع بين إدوارد سعيد ورمزي، أنهما راهنا على الموسيقى لصياغة رسالة مختلفة للسلام، نشكّ في أنهما أفلحا في إيصالها عبر حواجز القهر وهدير الدبابات.

علينا أن نُذكّر أن إدوارد سعيد وقف موقفاً رافضاً وحاداً من اتفاق أوسلو ومن القيادة التي وقعته وشكّلت السلطة التي قامت بمقتضاه، وهو لم يتردد في استخدام أقصى درجات حقوقه الديمقراطيّة في الرفض، وحتّى في استعارة مفردات الإدانة التي تنتمي إلى تراث جبهة الرفض العربيّة وخطابها التخويني: الاستسلام، الهرولة، الانبطاح ... الخ، إلاّ أنه سعى، من طرفه، إلى محاولة السلام، ومحاورته، عن طريق واحدة من أبرز اهتماماته الثقافيّة .. الموسيقى.

ربما تكون الفكرة قد بدأت في التشكُّل عندما التقى إدوارد سعيد، في بهو فندق لندني، بالموسيقار الإسرائيلي دانييل بارنباوم العام ١٩٩٠. ومن منطلق رفض الرجلين انتظار رجال السياسة لتنمية الروابط الثقافيّة بين الشعبين، تعاقدا فوراً على الحوار، واستثمار ما تمتلكه الموسيقى من إمكانيات للتقريب بين شعبين .. والتأليف بين قلوب البشر بعد عداوة طالت واستحكمت. وقد عبّر بارنباوم عن ذلك بالقول إنه سوف يعزف في رام ال له.. ليثبت أنه ليس ثمّة حلّ عسكري .. «لا من وجهة النظر الأخلاقيّة ولا من وجهة النظر الاستراتيجيّة».

غير أن الإعلان المتحمّس للفكرة، جاء بعد الحفل الموسيقي الذي أقامه بارنباوم في إسرائيل صيف ٢٠٠١، وتجرأ فيه على عزف مقطوعات لفاغنر، الموسيقي الألماني المحظور تداوله في إسرائيل، باعتباره، في التحليل الإسرائيلي المُغالي، كان معادياً للساميّة، ثم أصبح، بعد سنوات طويلة من موته، المسيقار المفضّل لهتلر.

كان من حقّ إدوارد سعيد أن يُثني على شجاعة صديقه بارنباوم. غير أنه تسرّع آنذاك في الكشف عن المستور في خطابه: إن شجاعة بارنباوم في تجاوز الحظر الإسرائيلي على فاغنر، تقتضي منّا شجاعة في المقابل، تتطلّب وقف الحملة على التطبيع مع إسرائيل، وبحسب تعبيره، فـ«إن الرفض الكامل للتطبيع لا يشكّل سلاحاً فاعلاً للذين لا قوّة لهم، وقيمته الرمزيّة ضئيلة، ولا يعبّر إلاّ عن الاستكانة والسلبيّة» (الحياة ١٥ آب ٢٠٠١)، إضافة إلى مطالبته الكفّ عن غباء استخدام تعبير «الكيان الصهيوني» الذي يتنكّر لوجود إسرائيل، ثم إدانته الصريحة والواضحة لما أسماه «التفجيرات الانتحاريّة»؟.

ومع أن مقولات سعيد واستنتاجاته السياسيّة ووجهت بعاصفة عاتية من النقد من لدن مثقفين عرب مناوئين لفكرة التطبيع، وبخاصّة في مصر، الموئل الأوّل لمقاومة التطبيع في الوطن العربي، فإن فكرة سعيد - بارنباوم ظلّت تسير في مغامرتها التي تجمع بين الثقافة والإبداع والسياسة من جهة، وحلم السلام الذي تشيّده الموسيقى بإيقاعاتها التي تمسّ أوتار الوجدان البشري وتهيئ لسلام النفوس.

لم يتوقف الأمر عند التنظير للفكرة في الكتاب المشترك للرجلين، والذي صدر في فرنسا تحت عنوان « إدوارد سعيد دانييل بارنباوم: متوازيات ومتناقضات»، ولا في اللقاءات الموسيقيّة التي جمعا فيها بين شابين موسيقيين، فلسطيني وإسرائيلي، هما سليم عبود أشقر وشاي وزنر، ولا في اللقاء الثقافي الكبير الذي تمكنا من تنظيمه في الأندلس وحشدا فيه نحو مائة موسيقي شاب عربي وإسرائيلي، بل إنهما، إضافة إلى ذلك، أفلحا في تشكيل فرقة موسيقيّة حملت عنوان «ديوان الشرق والغرب» وضمّت ثمانين عازفاً موسيقياً نصفهم من العرب والنصف الآخر من الإسرائيليين. وقد قدّمت الفرقة عرضها الأول في «رويال ألبيرت هول» بلندن (٢٢ آب ٢٠٠٣) تحت عنوان «كونشيرتو من أجل السلام».

وإذا كانت الأوضاع الصحيّة للراحل إدوارد سعيد قد أسهمت في غيابه عن الحفل، فقد وقف بارنباوم هناك ليؤكد إصراره على أن «إقامة إسرائيل كانت خطوة عادلة وأخلاقيّة»، على الرغم من تأكيده على «ضرورة الاعتراف بكلفتها الحقيقيّة على الآخرين» (الحياة ٢ أيلول ٢٠٠٣).

في واحد من مقالاته الأخيرة، إن لم يكن مقاله الأخير، الذي نشر قبل شهر تماماً من رحيله (الحياة ٢٠٠٣/٨/٢٥)، وعلى الرغم من أن المقال كان يتحدّث في سياق آخر، سياسي بحت، حرص إدوارد سعيد على وضع عنوان يمكن استثماره لوصف مشروعه الموسيقي للسلام مع بارنباوم: «أحلام وأوهام».

فعلى الرغم من أننا لا نشكّ في الدوافع الإنسانيّة النبيلة التي جعلت مفكراً إنسانياً كإدوارد سعيد يفرط بمثاليته العالية في «أحلام» السلام، فإن الإفراط في الأحلام يُخرج الحلم من دائرة الرؤية والرؤيا، ليدخل به إلى حيّز الـ «أوهام». وإذا كان الحلم هو توق لتجاوز الواقع البائس، فإن الوهم ينطوي على تبديد للواقع والحلم معاً.

ففي الوقت الذي كانت فيه فرقة «ديوان الشرق والغرب» تعزف ألحانها في لندن، كان إدوارد سعيد طريحاً على فراش المرض، سادراً في أحلامه وهو يُصغي إلى صوت موسيقى تتسرّب إليه من بعيد (ربما من أغوار عقله الباطن وأمنياته المثاليّة النائية)، في حين كانت الأباتشي تواصل قصفها للبشر، والدبابات الإسرائيليّة تواصل توغلها في المدن والمخيمات، والجرافات تواصل اقتلاعها لحقول الزيتون وما تبقى من أغصان خضراء تومئ إلى أفق للسلام. فيما كان رفيق مشروعه، بارنباوم، على الرغم من كلّ ما يمثله من حالة إسرائيليّة متقدّمة في رفضها للاحتلال، يسوّق الوهم الأيديولوجي الخادع حول عدالة وأخلاقيّة الخطوة التاريخيّة التي قامت عليها دولة إسرائيل.

ليس غياب إدوارد سعيد الفاجع، هو الذي سيقود إلى تبديد مشروع الموسيقى من أجل السلام، ولكنه الفعل الإسرائيلي الفاضح .. الذي يجعل صوت الموسيقى يذوب ويتلاشى مع أصوات الآليات الإسرائيليّة التي تزرع الموت والدمار، والصوت الصهيوني، الخفي والهامس، للطرف الآخر في المشروع .. الذي يسرّب مع صوت الموسيقى، أفكار عدالة وأخلاقيّة قيام الدولة العبريّة.

نعود إلى السؤال البسيط، الذي كنت أخبئه لإدوارد سعيد، إذا ما التقينا يوماً ذات صُدفة، والذي لن يتسنى لي أن أسمع إجابة عنه، حول الملصق الذي أصدره «المعهد الوطني للموسيقى» في رام الله قبل خمس سنوات للفتى رمزي. إذ لا شكّ في أن سؤال الملصق يبقى على صلة بأحلام موسيقى السلام .. وأوهامها.

مهما يكن، فلا شكّ في أن إدوارد سعيد شاهد، قبل أن يغفو غفوته الأخيرة، مثلما شاهدنا كلنا، الطفل رمزي وهو يعود إلى طفولته مع اندلاع الانتفاضة الثانية، كأنه غادر الملصق لينطلق إلى الشارع قابضاً بكلتا يديه على جمر الحجر ليرشق به جنود الاحتلال الذين اجتاحوا قريته ومدينته من جديد.

لم يغادر رمزي آلة «الفايلون» لأنه يحب الحجر أكثر، ولكن، ربما لأنه أدرك، بعد تجارب لا تُعد .. أن ليس على الضفة الأخرى من يصغي إلى صوت الموسيقى!